مشكلة الإختيار

الإنسان مخير أم مسير
بين العقيدة الأرثوذكسية والعقائد الأخرى

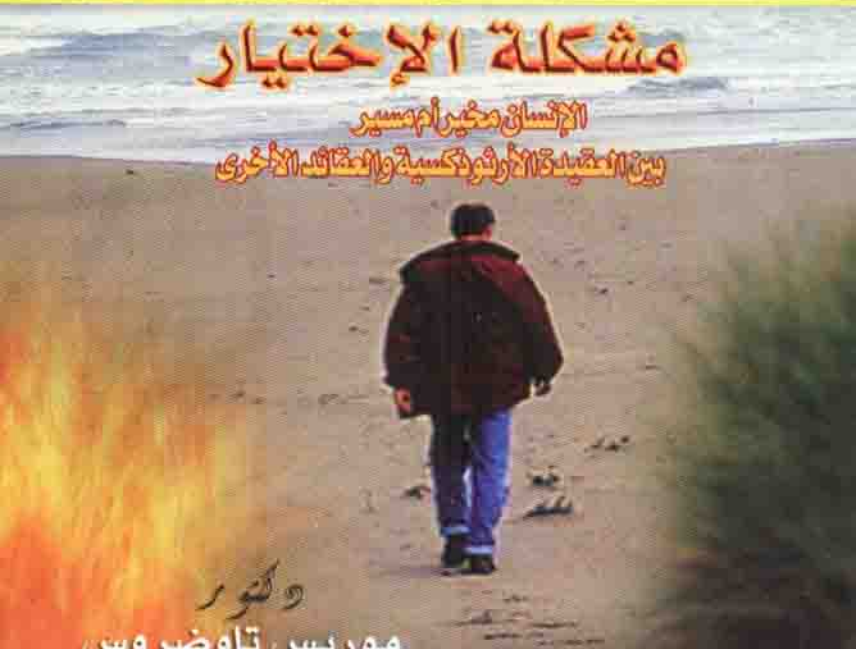

دكتور

موريس تاوضروس

استاذ العهد الجديد بالكلية الاكليريكية
ومعهد الدراسات القبطية بالقاهرة

مشكلة الإختيار

الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر

(بين العقيدة الأرثوذكسيَّة والعقائد الأخرى)

الطبعة الرابعة

للدكتور / موريس تاوضروس

أستاذ علم لاهوت العهد الجديد

بالكلية الإكليريكية

ومعهد الدراسات القبطية بالقاهرة

قداسة البابا المعظم

الأنبا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مشكلة الإختيار[1]

من المشاكل اللاهوتية الأساسية التى إرتبطت بالصلة بين ما هو أزلى وما هو زمنى " مشكلة الإختيار " ونناقش الآن هذه المشكلة فى ضوء المقارنة بين الفكر اللاهوتى الإنجيلى ، والفكر اللاهوتى الكاثوليكى والفكر اللاهوتى الأرثوذكسى .

+ أولاً : الفكر اللاهوتى الإنجيلى :

+ إن الله منذ الأزل حسب رأى مشيئته الكلية الحكمة والقداسة ، قضى كل ما يحدث قضاء إختيارياً عديم التغيير . وهو يشمل كل ما وقع وكل ما سيقع من الحوادث مع أسبابها وبشروطها ومتعلقاتها ونتائجها ، وهو يجعلها محققة الحدوث لأن الله قصد أن تكون كذلك . وهو قضاء واحد أزلى .

+ قضاء الله السابق هو تعيينه كل ما يحدث فى كل زمان على الإطلاق ، وهو يختص بمشيئته تعالى . وعلمه السابق هو معرفته منذ الأزل كل ما يحدث فى كل زمان على الإطلاق ، وهو يختص بعقل الله الغير محدود . فالقضاء السابق يجعل الحوادث محققة الوقوع ، والعلم السابق يراها محققة الوقوع ، وهو مبنى على القضاء السابق فيعلم الله الحوادث لأنه قضى بحدوثها .

١- نستند فى حديثنا عن مشكلة الإختيار فى الفكر اللاهوتى الإنجيلى إلى كتاب " علم اللاهوت النظامى " الباب الثامن – " فى قضاء الله " إصدار دار " الثقافة المسيحية "

+ إن كل الحوادث التى وقعت والتى ستقع كانت لدى عقل الله منذ الأزل ، وأنه قضى فى الأزل ما حدث منذ بدء الزمان إلى الآن وما هو حادث تحت النظام الحاضر بكل تغيراته وما سيحدث للأبد . وإن سبب حدوث أمر فى وقت ما هو لأن ذلك الوقت هوالمعين له فى قضاء الله . وقضاء الله واحد لا أقضية كثيرة ولا مبدوعة من وقت إلى آخر حسب مقتضيات الأحوال . والحوادث المختلفة التى لا تحصى هى أقسام قصد واحد عام أزلى .

+ إن قضاء الله حر أى إختيارى ومستقل ومطلق ، أى ليس له علة سوى مشيئته تعالى ، دون أن يضطره إليه سبب خارجى ولا يتوقف على أمر آخر . إن جميع مقاصد الله التى ما كان منها فى شأن خلاص البشر ناشئة عن رأى مشيئته ، فإنه يرحم من يشاء ويخلصنا ليس بأعمالنا بل بنعمته ، وأنه إختارنا للخلاص حسب مشيئته المطلقة . قضاء الله لا يتوقف على أعمال البشر ولا على أسباب طبيعية ، ولكنه يحيط بها بمعنى أنها داخلة فيه من قبيل كونها وسائط وآلات لإتمامه ولا يليق أن ننسب إلى الله القضاء المقيد .

+ إن الله قضى أعمال الناس الإختيارية منذ الأزل . إن تواريخ العالم هى مظاهر قضاء الله . إن حسد إخوة يوسف له وبيعهم إياه وحبسه ظلماً فى مصر ، كانت جزءاً من النظام الذى رتبه الله . وما يصدق على تاريخ يوسف يصدق على كل التواريخ ، أى أن كلها إظهار القصد الأزلى على التوالى .

+ الذين إعترضوا على القضاء المطلق العديم التغير بأنه يلاشى حرية الإرادة ، بنوا إعتراضهم على إعتقاد فاسد فى ماهية الحرية وشروطها . وفى ذلك قولان : **أحدهما** أن حرية الإرادة تقوم بحرية الفاعل أن يختار ويعمل ما شاء بحيث أنه وإن وجدت فيه ميول شديدة تسوق إرادته إلى ما إختاره فلا يزال حراً ما لم تضطره قوة خارجية إلى عمل عكس ذلك . **وثانيهما** : أن الحرية إنما تقوم بامتلاك ذى الإرادة قدرة تامة فى وقت واحد على عمل شئ وضده ، أى أن يكون له قدرة أن يضاد الميول الغالبة فيه ويعمل عكسها . وقد صادق اللاهوتيون المتمسكون بالنظام الكلفينى على أول هذين القولين بمعنى أن إرادة كل إنسان توافق دائماً ما فيه من الميول والرغائب المتغلبة على غيرها فى وقت إختياره . ولذلك إذا عرفنا الشخص ورغائبه المتغلبة فيه تحققنا ما يختاره مادام حراً فى إختياره . ولما كان الله قد عرف منذ الأزل ما يكون فى قلب كل إنسان فى كل حين من الميول والرغائب وكل ظروف حياته من بدايتها إلى نهايتها ثبتت عنده تعالى جميع أعمال الإنسان الحرة طول حياته . فالفكر اللاهوتى الإنجيلى يرفض تعريف الحرية بأنها تقوم بإمتلاك ذى الإختيار القدرة والفرصة لعمل ما إختاره .

+ قيل فى إقرار الإيمان " الوستمنسترى " : لأجل إظهار مجده (الله) قضى سابقاً على بعض الناس والملائكة بالحياة الأبدية ، وآخرين بتعيينهم سابقاً للموت الأبدى .

هؤلاء الناس والملائكة المقضى عليهم سابقاً ، والمعينون سابقاً هم مقصودون خصوصيون لا يتغيرون ، وعددهم معلوم محدود بحيث لا يزاد ولا ينقص .

إن الذين من البشر قد تعينوا للحياة ، إنتخبهم الله قبل تأسيس العالم حسب قصده الأزلى العديم التغير ومشورة مشيئته السرية وحسن إرادتها ، أى إنتخبهم بالمسيح الممجد الأبدى من قبل مجرد نعمته ومحبته بدون أن يرى سابقاً إيماناً أو أعمالاً صالحة أو إستمراراً أو شيئاً آخر فى المخلوق تعد شروطاً أو أسباباً حركته إلى ذلك ، وكل ذلك لحمد نعمته المجيدة .

كما أن الله عين المنتخبين للمجد ، هكذا بقصد إرادته الأزلية الكلية الحرية قد سبق فعين كل الوسائط لذلك ، فمن ثم الذين قد انتخبوا ، إذ سقطوا فى آدم ، إفتدوا بالمسيح ودعوا دعوة كافية إلى الإيمان بالمسيح بواسطة روحه ، فاعلاً فى الوقت المناسب ، فتبرروا وتبنوا وتقدسوا وحرسوا بقوته بالإيمان للخلاص . ولم يُفتد بالمسيح ولا دعوا دعوة كافية ولا تبرر وتبنى ولاتقدس ولا تخلص غير المنتخبين فقط . أما من جهة سائر البشر فقد شاء الله حسب رأى مشيئته الذى لا يفحص ، الذى بموجبه يرحم أو يمنع الرحمة لأجل مجد سلطانه المطلق على خلائقه ، أن يفوتهم وأن يعينهم للإهانة والسخط لأجل خطيتهم ولحمد عدله المجيد .

وقيل فى كتاب " أصول الإيمان " إن الله إذ كان بمجرد مسرته قد اختار منذ الأزل بعضاً للحياة الأبدية ، عقد عهد نعمة لينقذهم من حال الخطية والشقاوة ويدخلهم إلى حال الخلاص بواسطة فاد لهم .

وقيل فى عقائد الدين لكنيسة إنجلترا : التعيين السابق للحياة هو قصد الله الأزلى الذى قضى على الدوام قبل تأسيس العالم أن ينقذ من اللعنة والدينونة الذين سبق فاختارهم فى المسيح من البشر وأن يبلغهم به الخلاص الأبدى .

الرذل فى علم اللاهوت هو ما يقابل الإختيار . ويعبر عن الذين يخلصون بالمختارين ، وعن الذين يهلكون بالمرذولين وذلك لأن الله لم يقصد خلاصهم أى أنه قضى تركهم لا خلاصهم . إن مصدر الإختيار والرذل هو إرادة الله . إن الإختيار غير مبنى على خير فينا عُرف سابقاً ، كذلك الرذل غير مبنى على شر فينا عُرف سابقاً .

ثانياً : الفكر اللاهوتى الكاثوليكى :

ليس فى الكتاب المقدس مذهب متصل عن قضاء الله الأزلى ، ولكن بولس قد جعل من العمل الإلهى عنصراً هاماً من عناصر فهمه لتدبير الله . يريد بولس فى آخر عرضه النبوى عن تدبير الله (رو ١ إلى ٨) أن يثبّت رجاء المؤمنين ، فيكشف لهم حكمة الله السرية الخفية التى قدرها الله لنا قبل الدهور فى سبيل مجدنا (١ كو ٢ : ٧) .." إن الله يسخر كل شئ لخير الذين يحبونه ، أولئك الذين دعوا بسابق تدبيره . فالذين عرفهم بسابق علمه أعدهم قديماً لأن يكونوا على مثال صورة إبنه

ليكون هذا بكراً لإخوة كثيرين " (رو ٨ : ٢٨ ، ٢٩) . **ففى تدبير الله الشامل يميز بولس إذن جانبين : يعرف بسابق علمه ، ويعد بسابق إختياره ، ولا يجوز الخلط بينهما .**

١- (أ) فبحسب مفهوم الكتاب المقدس ، تقوم المعرفة لا على فعل عقلى ، بل على العلاقة الواقعية بين كائنين . ففى فكر الله ، تقوم من قبل الخلق علاقة محبة بينه وبين بعض الناس " إن الله يعرفهم " ١ كو ٨ : ٣ ، غلا ٤ : ٩ ، (راجع متى ٧ : ٢٣) . ويمكننا أن نقيم تعادلاً بين هذا العلم الأزلى والإختيار " وهم الذين إصطفاهم منذ البدء " (٢ تس ٢ : ١٣) ، و " الذين إختارهم الله الآب بسابق علمه " (١ بط ١ : ١ ، ٢) . فيرجع أصل قضاء الله الأزلى إلى هذا العلم السابق أو هذا الإختيار .

(ب) لكن الجانب الثانى لتدبير الله هو أن إختيار الله يتم من أجل هدف ، من أجل غاية معينة . وإذ كانت هذه الغاية نفسها موضوعة منذ البدء ، يمكننا أن نعتبرها " قضاء سابقاً " ولكن لا يمكننا أن نفهم هذه الغاية بالرجوع إلى الأصل ، إلا لكوننا نعرف الآن آخر الأزمنة ، حيث إستحقت لنا الذبيحة الفدائية المصالحة والتبنى مع الله حين " قضى لنا بسابق تدبيره أن يتبنانا بيسوع المسيح على ما إرتضته مشيئته " (أف ١ : ٥) .

٢ – أعد الله المختارين مع المحافظة على حريتهم : كانت المشكلة التى تعرض لها بولس الرسول لا تتعلق بالأفراد ، ولكن بكل الشعب

الإسرائيلى الذى كان يرفض المسيح . وميَّز بولس بين فئتين فى البشرية : بين المختارين والآخرين . على أنه لا يضعهما على نفس المستوى فى خطة الله . فبينما المختارون قد " أعدهم للمجد بسابق إعداده " (رو ٩ : ٢٣) فالآخرون قد وجدهم فقط " آنية غضب " فاحتملهم بصبر عظيم (رو ٩ : ٢٢) ، إذ الله لا يعد للهلاك بسابق تدبيره .

+ نحن نفكر فى الأفراد بينما هو ينظر إلى إسرائيل . إن أشخاص التاريخ المقدس – (عيسو أو فرعون) (رو ٩ : ١٣ ، ١٧) – هم فى نظره نماذج لا يعرض لمسألة خلاصهم الشخصى . فهو هنا لا يحل مشكلة العلاقة بين العملين ، العمل الإلهى والعمل الإنسانى ، ولكنه يضع المبادئ الأولى لحلها فى الأسلوب الهادئ الذى يؤكد به كلا العملين دون أن يرى تعارضاً بينهما .

+ كل شئ يحدث إذن على الأرض ، وكأن الحرية البشرية تكمن فى أن تحقق فى الزمن ما قدره الله الأزلى . هذا هو التصور الرؤيوى للوحى ، الذى ينبغى للعقلية العصرية ألا تخلط بينه وبين الجبرية ، متى ما تبينت فى الله أسبقية المحبة .

+ نجد فى الأناجيل أسساً تؤيد فكر بولس الرسول فى هذا المضمار ، وهذا يتضح فى اسلوب أكثر صراحة ، عند القديس يوحنا الذى يعلن أن الآب هو الذي يهب المؤمنين للإبن (يو ١٠ : ٢٩ ، ١٧ : ٢ ، ٦ ، ٩ ، ٢٤) " ما من أحد يستطيع المجئ إلىَّ ، إلا الذى إجتذبه الآب الذى

أرسلنى " (يو ٦ : ٤٤) . فنجد هنا مشكلة القضاء السابق منطبقة على الأفراد وليس على الشعوب فقط . فيدخل المؤمن عالماً جديداً يحيط به ويكتنفه من كل جانب . وما من أحد يمكنه أن يتخلص من إنطباع الحرية ، إلا الذى يتحقق من أسبقية المحبة الشاملة التى يكنها الله للعالم منذ البدء " (يو ٣ : ١٧ ، ١٢ : ٤٧) .

+ لابد من تخطى صعوبتين كبيرتين :

الصعوبة الأولى : وهى خارجية طارئة ، من أنه يتعذر علينا أن نتصور مشكلة القضاء الأزلى على أنها تتعلق أولاً بالشعب لا بالأفراد . وهكذا أثارت كلمات بولس الرسول الشديدة فى رسالته إلى أهل رومية أخطاء عديدة ، بل أدت أحياناً إلى اليأس ، فجعلت البعض يفكرون بحسب عبارة القديس أغسطينوس المؤسفة " أنه مقدر لهم الهلاك الأبدى " .

الصعوبة الثانية : وهى أكثر عمقاً ، هى أننا كثيراً ما ننسى أن اسلوب الكتاب المقدس يستعمل للتعبير عن إختبار دينى ، الألفاظ الدالة على صفتى المكان والزمان ، مما ينسب إلى الله تصرفات بشرية . والمعروف أنه لو نقلنا هذا الأسلوب وأقمنا منه مذهباً ميتافيزيقياً لأضفينا الطابع الأزلى على ما هو أساس زمني .

وفى قولنا : " إن الله يعد أزلياً المختارين ليكونوا أبناءه بالتبنى ، نستعمل تعبيراً بشرياً ، ولا نعنى به التأكيد أن الله مرتبط بالأساليب الأدبية التى تنطبق على الوضع الإنسانى فقط ، والتى تحاول التعبير عن

ممارسة حريتنا . وهكذا إذا نظرنا إلى محبة الله الأزلية من خلال طابعنا الزمنى لابد أن تبدو على أنها " قضاء سابق أزلى " يصل إلى حد رذل أولئك الذين لم يقدر إختيارهم ، ولكن هذا ليس إلا صورة من صور التعبير ونقلاً على مستوى المكان والزمان لحقيقة لا تخضع لأيهما .

وأما هذه الإعتبارات ، فإن لفظة " سابق " التى نستعملها غالباً فى تعبيراتنا بشأن هذه المشكلة المطروحة (على نمط إختيار سابق ، وعلم سابق ، ورؤية سابقة ، ومعرفة سابقة ، ومحبة سابقة ...) لا تدل إلا على إجتهاد الإنسان للتعبير عن أن المبادرة لا تصدر عنه بل عن الله ، وإذا تحول الأسلوب الزمنى إلى علاقات شخصية نكون قد بلغنا إلى معناها الحقيقى الذى عبر عنه يوحنا أحسن تعبير بقوله : " أما نحن فعلينا أن نحب ، لأن حب الله لنا سابق لحبنا " (١ يو٤ : ١٩) .

ثالثاً : الفكر اللاهوتى الأرثوذكسى :

وفى ضوء الفهم اللاهوتى الأرثوذكسى نعالج الآن المشكلة :

مشكلة الإختيار هى مشكلة الإرادة البشرية ومدى حريتها إزاء الإرادة الإلهية .

هل الإنسان مخير فى تصرفه ؟ أم هو مسير يستجيب دون إرادة ودون حرية لقضاء الله وقدره المحتوم الذى لا خيار للإنسان فيه ؟

وفى الكتاب المقدس آيات يتخذها البعض أساساً للإعتقاد بالجبرية والإلزام ، بينما أن هناك آيات أخرى تكشف فى جلاء ووضوح عما

يتمتع به الإنسان من حرية تجعله قادراً على الإختيار بين الخير والشر والصالح والطالح .

وانقسم اللاهوتيون إلى فريقين فى معالجة هذه المشكلة :

+ فريق يقول بالحتمية ويرى أن كل ما يحدث فى الكون يتم بإرادة الله المطلقة حسب مسرته ومشيئته ، ويعبر القديس أوغسطينوس عن هذا الرأى بقوله : " إن قضاء الله من جهة إختيار الإنسان وتركه مبنى على مجرد مسرة الله وإرادته المستقلة المطلقة لأسباب مجهولة عند البشر ومعلومة عنده تعالى . أى أن جل شأنه ليس مقيداً بشرط لقضائه الأزلى بالخلاص بل يفعل ذلك بحسب قصده ورأى مشيئته (أف ١ : ٤). وأن ما يرى من المختارين من صلاح فهو نتيجة الإختيار ، وليس الإختيار نتيجته .

ويأخذ الفكر اللاهوتى البروتستانتى بهذا الرأى وفى هذا يقولون :

إن الذين من البشر قد تعينوا للحياة إنتخبهم الله قبل تأسيس العالم حسب قصده الأزلى العديم التغير ، ومشورة مشيئته السرية وحسن إرادتها ، أى إنتخبهم بالمسيح للمجد الأبدى من قبل مجرد نعمته ومحبته بدون أن يرى سابقاً إيماناً أو أعمالاً صالحة أو إستمراراً أو شيئاً آخر من المخلوق تعد شروطاً أو أسباباً حركته إلى ذلك . وكل ذلك لحمد نعمته المجيدة . أما من جهة سائر البشر ، فقد شاء الله حسب رأى مشيئته الذى لا يفحص ، الذى بموجبه يرحم أو يمنع الرحمة لأجل مجد

سلطانه المطلق على خلائقه (علم اللاهوت للإيغومانس ميخائيل مينا – المجلد الثالث ص ١٠٣ ، ١٠٤)

ويدعم أصحاب هذا الرأى إتجاههم ببعض الآيات الكتابية على النحو التالى : " قد حلف رب الجنود قائلاً : كما قصدت يصير وكما نويت يثبت .. هذا هو القضاء المقضى به على كل الأرض ، وهذه هى اليد الممدودة على كل الأمم ، فإنه رب الجنود قد قضى فمن يبطل ويده هى الممدودة فمن يردها " (إش ١٤ : ٢٤ – ٢٧) .

" مصور النور وخالق الظلمة ، صانع السلام وخالق الشر . أنا الرب صانع كل هذه " (إش ٤٥ : ٧) .

" هوذا يهدم فلا يبنى . يغلق على إنسان فلا يفتح " (أيوب ١٢ : ١٤)

+ **وأما الرأى الثانى** : فيقيم وزناً للعمل الإنسانى ، ويبنى نوعية الإختيار على تصرفات الإنسان ومسلكه ، أى أن الله يتعامل مع البشر وفقاً لحالهم من الخير أو الشر ، وهى معروفة لدى الله وفقاً لعلمه السابق . وعلى هذا النحو فإن أصحاب هذا الرأى يؤكدون الحرية الإنسانية التى على أساسها يتم الإختيار . وهم يدعمون رأيهم ببعض الآيات على النحو التالى :

" يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً " (مت ٢٣ : ٣٧) .

" لا يقل أحد إذا جُرب أنى أجرب من قبل الله ، لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحداً . ولكن كل واحد يُجرب إذا إنجذب وإنخدع من شهوته " (يع ١ : ١٣ ، ١٤) .

" فإنى أعينكم للسيف وتجثون كلكم للذبح لأنى دعوت فلم تجيبوا، تكلمت فلم تسمعوا ، بل عملتم الشر فى عينى وإخترتم ما لم أسر به " (إش ٦٥ : ١٢) .

" إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض ، وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم " (إش ١ : ١٩) .

" وإن ساء فى أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون " (يشوع ٢٤ :١٥) .

" فقال الرب لقايين لماذا إغتظت ولماذا سقط وجهك : إن أحسنت أفلا أرفع ، وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك إشتياقها وأنت تسود عليها " (تك ٤ : ٦ ، ٧) .

+ والآن لنحاول أن نقدم الحل المناسب لمشكلة الإختيار ، فى ضوء الأصحاح التاسع من الرسالة إلى رومية ، حيث تبدو المشكلة واضحة من خلال تعبيرات الرسول بولس :

بدأ الرسول حديثه عن مشكلة الإختيار ، بالتفرقة الواضحة التى أقامها بولس الرسول بين " أولاد الجسد " و " أولاد الموعد " (رو ٩ : ٨) ، وقدم الرسول أمثلة عن الذين ولدوا حسب الموعد . فقد ولدت سارة حسب كلمة الموعد ، وكذلك الأمر بالنسبة لرفقة ، فقد أخذت كلمة

الموعد من الله ليكون لها نسل من إسحق أبينا " لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً ، لكى يثبت قصد الله حسب الإختيار ، ليس من الأعمال بل من الذى يدعو ، قيل لها أن الكبير يستعبد للصغير ، كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو " (رو ٩ : ١١ – ١٣) .

ويبدو واضحاً لأول وهلة أن قصد الله يقوم أساساً على التعيين السابق ، وكما لو كان لا يستند إلى أمر يتصل بالإنسان فله مطلق الحرية فى أن يختار من يختار ويرفض من يرفض . ويبدو كما لو أنه يؤكد أن إختيار الله ليعقوب كان متحرراً من الإرتباط بإستحقاقه ، وأن الأمر يرد أصلاً إلى حرية الله المطلقة التى بموجبها يمكن أن يرفض من يرفض ، وأن يختار من يختار .

ويشير الرسول بولس فى معرض حديثه عن يعقوب، وعيسو إلى ملاخى النبى (رو ٩ : ١٣) الذى قال بشأن هذا الأمر " أحببتكم قال الرب وقلتم بما أحببتنا . أليس عيسو أخاً ليعقوب يقول الرب ، وأحببت يعقوب وأبغضت عيسو وجعلت جباله خراباً وميراثه لذئاب البرية ، لأن آدوم قال قد هدمنا فنعود ونبنى الخرب . هكذا قال رب الجنود هم يبنون وأنا اهدم ويدعونهم تخوم الشر والشعب الذى غضب عليه الرب إلى الأبد ، فترى أعينكم وتقولون ليتعظم الرب من عند تخم إسرائيل " (ملا ١ : ١ – ٥) ، ومعنى هذا أن مواعيد الله وعهوده الخاصة بيعقوب وعيسو قد تحققت فى التاريخ المقدس وتأيدت بأحداثه .

والسؤال هنا : هل تم هذا فى صورة محاباة الرب ليعقوب ، وهل بسبب المحاباة صارت أحداث التاريخ تبرز يعقوب عن عيسو ؟ أليس

من الأصح أن يقال إن ملاخى النبى قد وجد فى أحداث التاريخ ما يعلل به ويؤكد ما سبق وذكره سفر التكوين عن تفضيل يعقوب عن عيسو ، أى أن محبة الله ليعقوب وبغضه لعيسو ، كل ذلك يتم فى عدالة ودون محاباة . على هذا النحو نظر الرسول بولس لأحداث التاريخ ، وأنكر أن يكون الله قد تصرف بظلم نحو عيسو ، فقال : " فماذا نقول ، ألعل عند الله ظلماً . حاشا " (رو ٩ : ١٤) .

على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا المسلك الذى سلكه الله نحو يعقوب وعيسو سلكه دائماً مع شعبه ، وهذا يتضح من موضع آخر فى حديث الرسول بولس ، حيث يشار إلى أنه يتصرف مع الشعب حسب مشيئته وحسب إرادته لأنه يقول لموسى : " أنى أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف . فإذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم " (رو ٩ : ١٥ ، ١٦) .

وهنا أيضاً نعيد نفس التساؤل السابق : هل يمكن أن نتصور أن الله يتصف بالمحاباة وبذلك لا تقوم معاملته للبشر على أساس من العدالة ؟

فإذا قال الله " أتراءف على من أتراءف " فهل يمكن أن نتصور أن الله يتراءف على من لا يستحق الرأفة ؟ ، وإذا قال الله " أرحم من أرحم " فهل يمكن أن نتصور أن الله يرحم من لا يستحق الرحمة ، ولا يرحم من يستحق الرحمة ؟ ويفسر بعض اللاهوتيين هذه الآية على النحو التالى :

+ قد يتوهم الذين ينظرون إلى هذا النص نظرةً سطحيةً أن الله جل شأنه يرحم بعض مخلوقاته ويقسو على بعضهم بلا علة كافية ، غير أن

ذلك ليس المقصود من هذا النص الذى لو عرفنا علة وضعه الصحيحة لسهل علينا فهمه وإدراكه . أما تلك العلة فهى حادثة العجل الذى عبده بنو إسرائيل ، وعلى اثرها هلك بعضهم ونجا البعض الآخر . وتنزيهاً لله من الجور فى معاملته الشعب بتلك المعاملة التى يسببها فاز برحمته فريق منهم دون الآخر ، قال لعبده موسى : بما أنك لست بعارف من هم المستحقون الرحمة والذين لا يستحقونها ، لأن ذلك يستدعى كشف القلوب والضمائر ، وأنتم لكم المعلنات والظواهر : فدعنى أنا أرحم من يستحق الرحمة ، وأقاضى من يستحق القصاص لأن ذلك من حقوقى التى لا يشاركنى فيها آخر . (علم اللاهوت – المجلد الثالث ص ٨١ ، ٨٢) .

إننا يجب أن نفهم إختيار الله ، لا على أنه سلطة يتوفر فيها العامل الإلهى فقط دون اعتبار للعامل الإنسانى . فإن الله يبنى حكمه على البشر حسب تصرفاتهم وأعمالهم . وإذا قال الرسول : " فإذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم " فإن ذلك لا يعنى أن الله لا يقيم هنا وزناً للمشيئة الإنسانية أو للسعى الإنسانى . وتذكرنا هذه العبارة بعبارة شبيهة نطق بها الرسول بولس فى رسالته الأولى إلى كورنثوس وهو يتحدث عن عمل الخادم فى الخدمة فيقول :

" إذن ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذى ينمى " (١ كو ٣ : ٧) فهل يُفهم من هذه الآية أن الله ألغى عمل الغارس أو عمل الساقى ؟ وهل من الممكن للزرع أن ينمو دون أن يكون هناك من يؤدى عملية الغرس أو يقوم بعمل الغارس ؟ وكذلك لا يكفى فقط عمل الساقى ، بل

يستلزم الأمر قوة النمو التى هى من قبل الله . وهكذا فإن الأمر يحتاج إلى تعاون كل هذه العوامل : قوة النمو – الغرس – السقى . أما قوة النمو فهى من قبل الله ، وأما الغرس والسقى فهما من قبل الإنسان . وهذا أيضاً يحدث بالنسبة لخلاص الإنسان ونعمته . فإذا كان الأمر حقاً لا يكفى فيه السعى والمشيئة من قبل الإنسان لأن الأمر يتوقف على رحمة الله ، لكن ليس معنى ذلك أننا هنا نلغى قيمة هذا السعى ونلغى قيمة هذه المشيئة ، بل بدون هذه المشيئة وهذا السعى لا تتم رحمة الله ، كما أنه بدون الغرس والسقى لا تتم عملية النمو فلا يوجد إذن فى هذه الآية ما يؤيد الفهم الخاطئ لعمل النعمة الإلهية والذى بموجبه ينكر البعض قيمة العامل الإنسانى ويؤكد فقط العالم الإلهى (أنظر كتاب " لك يا بنى " لصاحب القداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث ص ١٧ ، ١٨)

إننا يجب أن نلاحظ أن إرادة الله ومشيئته لا تتعارضان مع صفات الله التى منها العدالة والبر والصلاح ، ومثل هذه الصفات تنفى أن ينسب إلى الله أى ظلم فى تصرفه أو أى حكم تعسفى لا يبنى على الحق .

على أن تفهم " مشكلة الإختيار " عند الرسول بولس يصبح سهلاً ميسوراً إذا أمكننا أن نقف على الدوافع وراء هذه العبارات التى إستعملها الرسول ، والتى يبدو فيها كمن لا يقيم وزناً على الإطلاق للعمل الإنسانى ، بل يرد الأمر كله إلى إرادة الله .

لقد كان اليهود ينكرون على الله أنه يضم إلى حظيرة الخلاص "الأمميين" وهم الذين لم يكونوا فى نظرهم من شعب الله . لقد كان هناك

إذن إحتجاج من اليهود على الله وتنكر لتصرفاته ، وكأنما أراد اليهود أن يحدوا سلطان الله وملكوته . إن هذا الموقف من اليهود يسلب من الله سلطانه المطلق ، وينكر عليه قدرته فى أن يتصرف بموجب مشيئته وإرادته . لقد كان أساس المشكلة التى ناقشها بولس الرسول هنا هى " قدرة الله وهل هى مطلقة أم نسبية " . إن اليهود تنكروا لهذه القدرة المطلقة لأنهم أنكروا على الله أن يضم الأمميين إلى شعب الله .

فبماذا كان يمكن أن يجيب الرسول على هذه الإعتراضات ؟ وهل كان من الممكن أن يتحدث الرسول عن الله فيحد سلطانه ويحد قدرته ويقيد تصرفاته بالبشر ؟

هب أنك تريد أن تتحدث عن الله وعن صفاته ، فهل يمكن أن ننسب إليه صفات نسبية غير مطلقة ؟ ألا تقول : " إن الله قادر على كل شئ وأنه لا يوجد ما يحد الله فى سلطانه وجبروته ؟ بلا شك ، إننا ننسب إلى الله صفات مطلقة ، وعلى هذا النحو تحدث الكتاب المقدس عن الله فى مواضع أخرى من الكتاب المقدس مؤكداً سلطانه المطلق الذى لا يحد، كما يبدو من الآيات التالية :

" وهو يغير الأوقات والأزمنة ، يعزل ملوكاً وينصّب ملوكاً " (دا ٢ : ٢١) " هوذا يهدم فلا يبنى ، يغلق على إنسان فلا يفتح " (أيوب ١٢ : ١٤) " وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم " (أع ١٧ : ٢٦) الذى فيه أيضاً نلنا نصيباً معينين سابقاً حسب قصد الذى يعمل كل شئ حسب رأى مشيئته " (أف ١ : ١١)

وهذا هو ما حدث مع الرسول بولس وهو يريد أن يدافع أمام اليهود عن صفات الله المطلقة التى لا تُقيَد ولا تُحد ، ولذلك تحدث عن الله الذى " يرحم من يرحم ، ويتراءف على من يتراءف " .

على أننا إذا قلنا أن الله قادر على كل شئ فإننا لا نقصد من ذلك أن قدرته يمكن أن يشوبها أى ظلم أو أى شائبة . ذلك لأن قدرة الله المطلقة ترتبط أيضاً ببره المطلق وبعدالته المطلقة وبقداسته المطلقة ، ولا يمكن أن تتناقض صفات الله بعضها مع بعض .

هذا هو ما قصد إليه الرسول بولس وهو يتحدث عن الله . فقد كان لابد للرسول إزاء إفتراءات اليهود أن يؤكد لهم قدرة الله المطلقة التى لا تُحد ، فإذا شاء أن يرحم أو يقسو ، فهو يفعل ذلك فى حرية مطلقة غير محدودة بشئ . على أن عبارات الرسول لا يُقصد منها أن الله لا يقيم وزناً للإنسان ولأعماله بل يُقصد منها فقط أننا عندما نتحدث عن الله فلا يمكن أن ننسب إليه إلا القدرة الكاملة والسلطان الكلى . فإذا أضفنا إلى هذه القدرة عدالة الله وصلاحه ، فإن معنى هذا أن الله بالرغم من قدرته المطلقة فهو يقيم علاقته مع البشر على أسس من العدالة والصلاح . فلا يمكن أن يغفل الله المجهود أو الجهاد الذى يصدر عن الإنسان ، ولا يمكن من ناحية أخرى أن يهب إنساناً لا يستحق بركاته ، بينما يمنع نعمه عن إنسان يستحقها ، وذلك فقط بدافع من ممارسة سلطانه المطلق .

قلنا فيما سبق : أن الله أحب يعقوب وأبغض عيسو . وأنه قسّى قلب فرعون . وهو فيما يقول الرسول بولس : يرحم من يرحم ويتراءف

على من يتراءف فإذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذى يرحم .

وبعد هذه الكلمات التى نطق بها الرسول كان من الممكن أن يثور مثل هذا الإحتجاج : " فستقول لى لماذا يلوم بعد ، لأن من يقاوم مشيئته ؟ (رو ٩ : ١٩) " أى إذا كان الله يقسى من يريد فلماذا إذن يحاكم القساة ؟ لأنه مَن من البشر يستطيع أن يقاوم مشيئته . فإذا كان الله قد قسّى قلب فرعون ، فلم يعد هناك من موجب للحكم عليه وإدانته لأن فرعون لا يستطيع أن يقاوم مشيئة الله .

أما بولس الرسول فيستنكر على الإنسان بوجه عام أن يحتج على مشيئة الله " بل من أنت أيها الإنسان الذى تجاوب الله ، ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟ (رو ٩ : ٢٠) " إن الرسول يؤكد هنا أنه ليس من حق أى إنسان أن يقاوم مشيئة الله أو يحتج على إرادته ، فإن الخلقة لا تستطيع أن تقول لخالقها لماذا صنعتنى لهذا الأمر ولم تصنعنى لأمر آخر . أو لماذا صنعتنى بهذه الصورة ولم تصنعنى بصورة أخرى . أو كما يقول الرسول فى الرسالة الثانية إلى تيموثيوس " ولكن فى بيت كبير ليس آنية من ذهب وفضة فقط بل من خشب وخزف أيضاً وتلك للكرامة وهذه للهوان " (١ تى ٢ : ٢٠) .

ويشبه الرسول بولس سلطان الله على البشر بسلطان الخزاف على الطين " أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان " (رو ٩ : ٢١).

ولكن هل يفهم من هذا التشبيه أن الرسول بولس يؤكد فقط سلطان الله المطلق فى علاقاته بالبشر دون أن يقيم أى وزن للعمل الإنسانى ؟ بلا شك كما للخزاف سلطان ليصنع من كتلة واحدة أوانى بعضها للإستعمال الكريم والأخرى لغير ذلك ، هكذا فإن الله يستطيع أن يختار بعض البشر للنعيم الأبدى وبعضهم للهلاك الأبدى . ولكن هل يؤخذ من هذا التشبيه ان هذا الإختيار لا يُبنى على استحقاقات البشر ، ويتم فقط وفق مشيئة إلهية لا تلتزم بأى مقياس فى تصرفاتها ؟

الواقع أن مثل الخزاف لا ينتهى بنا إلى مثل هذه النتيجة التى فيها تنكر تام لعمل الإنسان وحريته ، وذلك لأن الخزاف وإن كان ذا سلطان مطلق لأن يصنع من الطين ما يشاء من أوان للكرامة وأخرى للهوان ، فمما لا شك فيه أن الخزاف يتصرف وفقاً لنوع الطين ، فيختار الأفضل ليصنع منه أوانٍ للكرامة . أى أن سلطان الخزاف المطلق لا يغفل نوع الطين ، أو بمعنى آخر فإن نوع الطين هو الذى يحدد للخزاف أن يصنع أوانٍ للكرامة أو أوانٍ للهوان . وعلى هذا النحو إذا تحدثنا عن الله فى تصرفاته مع البشر ، فإننا نرى أن " الكتلة " هنا تشير إلى البشر ليس كما خلقهم الله ، بل كما وجدهم . أى أن الله لم يخلق منذ البداية إنساناً يجعل مصيره الهلاك ، وآخر يجعل مصيره النعيم الأبدى . بل أن الله بحسب تصرفات البشر ومسلكهم يحدد لهم مصيرهم ، فإن كان الله قد صنع من كتلة واحدة أوانٍ للكرامة وأخرى للهوان ، فإن الإختيار بين الكرامة والهوان يرد إلى الإنسان الذى جعل نفسه إما آنية للكرامة ، وإما آنية للهوان . فإن الله لا يجعل إنساناً يسلك بكرامة " آنية للهوان " ولا يجعل إنساناً يسلك بهوان " إناء للكرامة "

فالأمر إذن فيما يتصل بمصير الإنسان يرد إلى الإنسان نفسه :

كيف شاء هذا الإنسان لنفسه أن يكون . إن إختيار الله يرد إلى نوع الإناء الذى إختاره الإنسان لنفسه ، هل إختار أن يكون إناء للكرامة أو أن يكون إناء للهوان . إن الله كما يشير الكتاب ذو إرادة خيّرة ، وهذه الإرادة الخيّرة تريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون . ومعنى ذلك أن الله يريد أن يكون الجميع أوانٍ للكرامة ، لأن هذا فقط هو ما يتفق مع إرادته الخيّرة . فإذا صنع الله أوانٍ للهوان ، فلا يكون هذا صادراً عن إرادته بل وفقاً لحالة الإنسان الذى يكون وضعه كالطين الذى لا يصلح لأن يُصنع منه شئ إلا أوانٍ للهوان . فالله إذن يتصرف مع البشر محترماً ومقدراً إرادتهم وحريتهم ، ونحن بإرادتنا وحريتنا نشترك لأن يصنعنا الله أوانٍ للكرامة ، وبإرادتنا وحرتنا أيضاً نقاوم مشيئته فلا نصلح إلا أن نكون آنية للهوان . فالإنسان بحريته واختياره يحدد ما يمكن أن يكون عليه .

وهذا العامل الإنسانى أوالحرية الإنسانية فى تحديد مصير الإنسان يؤكدها الرسول بولس فى قوله : " فإن طهر أحد نفسه من هذه يكون إناء للكرامة مقدساً نافعاً للسيد مستعداً لكل عمل.صالح " (٢ تى ٢ : ٢١) .

إن سلطان الخزّاف يتضح فى أنه قادر على أن يشكل الطين كما يشاء . فالطين بيده طائع صاغر ، وهكذا أيضاً سلطان الله على البشر يفعل بهم كما يشاء ، وليس عليهم إلا أن يطيعوا صاغرين دون إحتجاج . ولكن لا ننسى فى كلتا الحالتين سواء بالنسبة للخزاف أو

بالنسبة لله ، لا يشار هنا إلى السلطان الأعمى غير البصير لأننا عندما نتحدث عن سلطان الله يجب ، كما ذكرنا سابقاً أن نقيم وزناً لصفات الله الأخرى من صلاح وبر وعدالة ، وهكذا الأمر بالنسبة للخزاف فهو لا يختار النوع الجيد من الطين لصناعة أوان للهوان أو بالعكس .

ويواصل الرسول حديثه فيقول " فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته ، إحتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك " (رو ٩ : ٢٢) .

وهذا يعنى أن الله وهو يشاء أن يظهر غضبه ويبين قوته ، إحتمل فى صبر وأناة هذه الأنية التى تستحق غضبه والتى هيأت نفسها بنفسها للهلاك . وهنا نلاحظ أن الله لم يصنع هذه الآنية المهيأة للهلاك بل احتملها ، ولو كان هو قد صنعها لما كان عليه أن يُظهر غضبه نحوها . فأين إذن هو المبرر لكى نرى فى تصرفات الله أى ظلم أو تعسف ؟ إن عبارة " يُظهر غضبه " يمكن أن تشير بصفة خاصة إلى موقف فرعون ، وعلى العموم تشير إلى موقف الله من الذين يعصونه ويخالفونه . فهؤلاء يكونون مجالاً لإظهار غضب الله مثل سدوم وعمورة . ومن كل هذا يتضح أن الله يتصرف بعدالة ومحبة نحو البشر ، وليس من حق الإنسان أن يحتج على صنع الله ، لأن الله لا يظلم أحداً ولا يتعسف بأحد ولا يغضب على من لا يستحق الغضب ، ولا يرحم من لا يستحق الرحمة لمجرد ممارسة سلطانه المطلق .

وإذا كانت " آنية الغضب " مجالاً لإظهار غضب الله فإن " آنية الرحمة " مجالاً لإظهار غنى مجده كما يقول الرسول " ولكى يبين غنى

مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد " (رو ٩ : ٢٣) . فالله إذن من أجل أن يُظهر مجده لغنى ، ومن أجل أن يُظهر رحمته نحو البشر الذين يستحقون هذه الرحمة قد سبق بحسب علمه السابق وأعد هذه الآنية لتكون آنية رحمة لا آنية غضب . (أنظر كو ١ : ٢٧ ، فى ٤ : ١٩ ، أع ٩ : ١٥) .

أما آنية الرحمة التى يشير إليها الرسول فى هذا المجال فيقصد بها " نحن المؤمنين " الذين لم نكن من اليهود فقط بل أيضاً من الأمم (رو ٩ : ٢٤) أى أن رحمة الله لم تقتصر فقط على شعبه بل شملت أيضاً الأمم ، كما يقول فى هوشع أيضاً : " سأدعو الذى ليس شعبى شعبى ، والتى ليست محبوبة محبوبة ، ويحدث أنه فى المكان الذى كان يتعبد فيه الأمميون للأوثان وحيث قد قيل لهم أنكم لستم شعبى ، هناك سيدعون أبناء الله الحى " (رو ٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

ويشير بولس الرسول إلي البقية التى سوف تخلص من شعب الله " وإشعياء يصرخ من جهة إسرائيل وإن كان عدد بنى إسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص " (رو ٩ : ٢٧) .

ويتحدث الرسول عن حكم الله الذى قضى به سابقاً والذى يقوم على العدل وهو حكم لابد أن يتم نفاذه ويتحقق على الأرض " لأنه متمم أمر وقاض بالبر ، لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض " أى أن الرب سيتمم كلامه فى الأرض إتماماً كاملاً سريعاً . وهذا ما سبق وأنبأ به إشعياء النبى فقال " لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلاً لصرنا مثل

سدوم وشابهنا عمورة " (رو ٩ : ٢٩ ، وأنظر أيضاً إش ١ : ٩) . فإشعياء هنا يشير إلى البقية التى سوف تخلص من شعب الله .

ثم يميز الرسول بين المصير الذى إنتهى إليه الأمميون ، أما بالنسبة للأمميين فقد قال الرسول : " إن الأمم الذين لم يسعوا فى أثر البر أدركوا البر . البر الذى بالإيمان "

وأما بالنسبة لليهود فقال الرسول : " ولكن إسرائيل وهو يسعى فى أثر ناموس البر لم يدرك ناموس البر " (رو ٩ : ٣٠ ، ٣١) . معنى كل هذا – وهو بالتالى النتيجة لما سبق وقاله الرسول حتى الآن – أن مواعيد الله لم تفقد قوتها ، وأن كلمات الله صادقة وليس فيها كذب ، فإن الشعب الوثنى الذى لم يكن يسعى فى أثر البر حصل على التبرير بواسطة الإيمان ، وهكذا تحققت وصدقت مواعيد الله . أما إسرائيل وهو يسعى فى أثر البر لم يدركه " لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان بل كأنه بأعمال الناموس (رو ٩ : ٣٢) فإنهم إصطدموا بحجر الصدمة كما هو مكتوب " ها أنا أضع فى صهيون حجر صدمة وصخرة عثرة وكل من يؤمن به لا يُخزى " (رو ٩: ٣٣ ، قابل مع إش ٨ : ١٤ ، لو ٢ : ٣٤) .

إن الإسرائيليين الذين كان لهم الناموس ، والذين كانوا يهدفون لأن يتبرروا أو يحصلوا على البر بواسطة المحافظة على وصايا الناموس ، هؤلاء لم يفلحوا فى الحصول على الوسيلة أو الكيفية التى تقودهم إلى التبرير . ولكن لماذا ؟ لأن اليهود قد هدفوا ليحصلوا على هذا التبرير ليس بالإيمان بل بواسطة أعمال الناموس ، كما لو كان من الممكن أن

يتبرر الإنسان بواسطة المحافظة على الناموس الموسوى . وهكذا بسبب عدم إيمانهم بالمسيح إصطدموا بالحجر وتعثروا فيه فهم كالعميان الذين بسبب عدم إيمانهم لم يدركوا جوهر رسالة المسيح . فالمسيح هو حجر صدمة أو سمى هكذا بالنسبة لهؤلاء الذين لا يجعلون أساس خلاصهم مبنياً على الإيمان بالمسيح بل على العكس يرفضون المسيح فيخطئون ويتعرضون للجزاء .

إن المسيح قد صار بالنسبة لهم حجر صدمة وصخرة عثرة وفقاً لما قاله النبى إشعياء " لذلك هكذا يقول السيد الرب ها أنذا أؤسس في صهيون حجراً حجر إمتحان . حجر زاوية كريماً أساساً مؤسساً من آمن لا يهرب " (إش ٢٨ : ١٦) . فالذين لا يؤمنون بالمسيح سوف يسقطون ويسحقهم الحجر . أما المؤمنون فانهم لا يفشلون ولا يحزنون بل يتحقق لهم الخلاص بواسطة المسيح .

ومن المهم هنا أن نلاحظ أن الخلاص الذى تحدث عنه الرسول بالنسبة للبقية التى تخلص من شعب الله يتحقق بالإيمان وليس بأى وسيلة أخرى . الإيمان هو الوسيلة الوحيدة لهذه البقية كى تخلص . فعلامة خلاصها ، وسبيل تحقيقه هو الإيمان . وبذلك لا ترتبط فكرة الخلاص بالنسبة لليهود – بإقامة دولة خاصة لهم أو إعادة بناء الهيكل أو غير ذلك من المفاهيم المادية التى لا تتفق والمفهوم الروحى لملكوت الله . إن الخلاص فى العهد الجديد له مفهوم روحى ويشير على الأخص إلى حياة التبرير والإيمان بالمسيح يسوع . (أنظر كتابنا : اليهود واليهودية فى

تعاليم بولس الرسول " المكتب المسكونى للإعلام فى الشرق الأوسط " – ١٩٧٤ ص ٢٤ – ٣٢) .

الإختيار لا يعنى المصير المحتوم :

إن الإختيار إذن ليس معناه أن الله حدد للبشر منذ الأزل مصيرهم فعين البعض للنعيم الأبدي والبعض للهلاك الأبدى ، وإلا لكان معنى ذلك أن الله قضى على الحرية البشرية ، وأن كل ما يفعله الإنسان هو مجرد أنه يكتشف حياته التى سبق وصاغتها الإرادة الإلهية بطريقة جبرية لا دخل للإنسان فى تحديدها . إن علم الله السابق بأن فلاناً سيكون خيّراً وأن فلاناً سيكون شريراً . هذا العلم السابق ليس هو الذى يحدد للأول طريق الخير وللثانى طريق الشر . إذا كان الله يعلم سابقاً بأن آدم سوف يُخطئ أو أن يهوذا سوف يسلم المسيح فليس معنى ذلك أن الله شاء لآدم أن يُخطئ أو شاء ليهوذا أن يسلم المسيح ، ولو كان الأمر هكذا فإن آدم لا يكون مسئولاً عن خطئه ، وكذلك لا يكون يهوذا مسئولاً عن تسليمه للمسيح ، فكلاهما يفعل ما شاء الله لهما وما حدده لمصيرهما . ولن يكون لأحدهما مسئولية عن تصرفه ، وبالتالى لن يكون مستحقاً للعقاب وإلا كان الله يعامل البشر بالظلم . وأحياناً كثيرة يثير البعض هذا التساؤل : إذا كان الله يعلم سابقاً أن آدم سوف يُخطئ فلماذا لم يمنعه من خطئه ؟

ومرة أخرى نقول : إن علم الله السابق لا يتدخل على الإطلاق فى تحديد مصير هذا أو ذاك من البشر ، ولعل كلمة " السابق " هى التى توحى بأن الإنسان ليس عليه إلا أن ينفذ ما سبق وقد إختاره الله له ،

وأن هذا الإختيار فى الماضى البعيد هو الذى يقود الحاضر ويتحكم فى المستقبل ، لأن الماضى قد سبق وحدد للحاضر ، وكذلك حدد للمستقبل ما يجب أن يكون عليه كل منهما.

إذا قلنا أن الله يعلم سابقاً أن آدم سوف يُخطئ ، فإن هذه المعرفة لم تبطل حرية آدم فى أن يتصرف كما يشاء وحسب الطريق الذى يختاره . إننا يجب أن نتفهم مدلول الزمان بالنسبة لله على نحو مخالف لما نفهمه عن مدلول الزمان بالنسبة للإنسان . بالنسبة للإنسان الزمان ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل . ولكن ليس هكذا الأمر بالنسبة لله . عندما يولد الإنسان لا يكون هو أول الكائنات على وجه البسيطة فهناك كثيرون قد ولدوا قبل أن يولد . أى أن هناك زمناً يسبق يوم ميلاده ، ومن أجل ذلك فقد تعلم أن هناك ماض وجد قبل أن يوجد ، ثم يعيش الإنسان فى زمن الحاضر فيتعلم معنى الحاضر . ثم ينتظر الإنسان حدوث أمور لم تحدث بعد وسوف تحدث فيما بعد فيتعلم معنى المستقبل . ولذلك فليس غريباً أن يجهل الإنسان الأحداث التى لم تقع بعد ولم تتم والتى يمكن أن تقع فى المستقبل . أما بالنسبة لله فالأمر يختلف تماماً فلم يكن هناك زمن ماض يسبق الله فى وجوده حتى يُقال أن هناك ماضٍ لله ، وليس هناك أيضاً ما يمكن أن يجهله الله من أحداث فى هذا الكون سواء وقعت أو لم تقع بعد ، حتى يقال ان الله له مستقبل ، وإلا لكان يعنى ذلك أن معرفة الله ليست كاملة وأن ثمة أحداثاً جديدة كان يجهلها الله سوف يكتسب معرفتها . فهذا لا يتفق مع علم الله الكامل الذى يطوى الماضى والحاضر والمستقبل بكل ما يقع من أحداث . إن ما هو جديد بالنسبة لنا نحن البشر ليس جديداً بالنسبة لله بل هو حاضر أمام الله يراه رؤية

العين . فلا يوجد بالنسبة لله إلا الحاضر الدائم . أى أن كل شئ يحدث فى العالم أو حدث فى الماضى أو سوف يحدث فيما بعد هو بالنسبة لله ماثل أمامه فى حاضره الدائم . فإذا كان الله يعرف ما يكون عليه مستقبل آدم فإن هذا لا يعنى أكثر من أن الله يرى ما يفعله آدم ، وبموجب هذه الرؤية التى هى بالنسبة لله حاضرة ماثلة فى زمن حاضر حتى بالنسبة للأحداث التى لم تقع بعد بالنسبة للإنسان – يكشف الله عن مسلك آدم ومصيره .

دعنا نبسط الأمر أكثر :

طالب رسب فى امتحان آخر العام . الله يعلم سابقاً أن هذا الطالب سوف يرسب . بالنسبة لنا نحن نجهل هذا الأمر لأنه لم يحدث بعد وهو يقع فى مجال النبوة بأمور مستقبلة . أما بالنسبة لله الذى تمر أحداث المستقبل أمام بصره فى زمن الحاضر الدائم فهو يرى الطالب وقد تقدم لتأدية إمتحانه ، ثم يرى أوراقه وقد صُححت ، ثم يرى الدرجات التى حصل عليها ، ويرى أخيراً النتيجة النهائية لامتحاناته . ثم يرى بيان النتيجة وقد علق على الحائط وكتب أمام إسم الطالب كلمة راسب ، فإذا كشف الله بموجب علمه السابق عن نتيجة هذا الطالب وأنه راسب ، فعلى الرغم من أن الطالب لم يكن بعد – بالنسبة لنا – قد تقدم لأداء الإمتحان فإنه بالنسبة لله يكون كل شئ حاضراً أمامه فيعلن لنا – مسبقاً – نتيجة هذا الطالب . والأمر واضح هنا أن علم الله السابق برسوب هذا الطالب لم يتدخل مطلقاً فى تحديد مصير هذا الطالب . إن الطالب يجنى

ثمرات إستحقاقه وإهماله ، وأما بالنسبة لله فقد كان الله يشاء له أن ينجح وأن يتفوق لأن مشيئة الله هى دائماً خيّرة .

ولنضرب مثلاً آخر :

الله يعرف مسبقاً أن يهوذا سوف يسلم المسيح . الله يرى يهوذا وقد اختاره المسيح رسولاً من الرسل الإثنى عشر ، وعلى الرغم من أن هذا الأمر لم يكن قد تم بعد بالنسبة لنا نحن البشر لأن يهوذا لم يكن قد ولد بعد . لكن بالنسبة لله قد ولد يهوذا وقد اختاره المسيح بين من اختارهم من تلاميذه . رأى الله كيف كان يهوذا يخون سيده ويتآمر مع اليهود لقتله ، واتفق معهم على تسليم المسيح للموت ، ورأى أيضاً يهوذا وقد أصابه اليأس وأقدم على قتل نفسه .

وبموجب هذه الرؤية لسيرة حياته يكشف الله عن مصير يهوذا ويعلنه على فم أنبيائه ، فيكون الأمر بالنسبة لنا نبوءة تتصل بأحداث مستقبلة ، وأما بالنسبة لله فيكون الأمر كشفاً ورؤية تتصل بالزمن الحاضر الدائم لله . فما نقرؤه فى العهد القديم عن يهوذا كنبوءة أعلنها الله على فم أنبيائه لا يكون هكذا بالنسبة لله ، فإن الله يُعلن أمراً يراه أمام عينيه ويقع تحت بصره . وعلى ذلك فإن ما سبق وقد تنبأ به الأنبياء عن يهوذا معلناً لهم من قبل الله ، لم يكن هو الذى دفع يهوذا لأن يتصرف هذا التصرف ويسلك هذا المسلك ويكون يهوذا مسئولاً مسئولية كاملة عن تصرفه .

وهكذا يمكننا أن نقول :

الله يعرف مسبقاً أن يهوذا الإسخريوطى سيسلم المسيح ويعرف أن يعقوب سيتصرف تصرفاً صالحاً ، ولكن هذه المعرفة ليست هى السبب الذى دفع يهوذا لأن يسلم المسيح ، ولا هى التى دفعت يعقوب لأن يكون إنساناً صالحاً . نحن نسميها معرفة قبلية سابقة لأنها تسبق حدوث الواقعة . فهى بالنسبة لنا معارف متقدمة سابقة ، ولكن ليس الأمر هكذا بالنسبة لله . بالنسبة لنا يوجد حاضر ومستقبل وماض فنحن نقول أن هذا الفعل وقع فى الماضى أو واقع الآن أو لم يقع بعد وإنما سيقع فى المستقبل .

نحن نحدد الحوادث تحديداً زمنياً لأننا نعيش فى زمن ، أما بالنسبة لله فليس هناك تحديد زمنى لأنه هو خارج عن الزمن . فما هو مستقبل بالنسبة لنا هو حاضر بالنسبة له ، وما سوف يحدث بعد مئات وألوف السنين بالنسبة لنا هو حادث الآن بالنسبة لله أو كما لو كان واقعاً . وعلى ذلك فإن معرفة الله للأمور المستقبلية هى عبارة عن رؤية الله لهذه كما لو أنها واقعة وحادثة فى الوقت الحاضر . فكما تتكلم أنت عن شئ تراه الآن ببصرك أو تسمعه الآن بأذنك أو تلمسه الآن بيدك ، هكذا يتكلم الله عن الأمور المستقبلة فهي تقع الآن تحت بصره أو سمعه أو لمسه .

من كل هذا نخلص إلى القول بأنه لا يقصد بمعرفة الله السابقة أن الله حدد لأن يكون هذا الإنسان خيّراً أو شريراً ، باراً أو أثيماً . إن الله لا يخلق بعض البشر للنعيم الأبدى وبعضهم للهلاك الأبدى . إنما الله يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون . ليس الله هو الذى يحدد وضعنا من حيث النعيم الأبدى أو الهلاك الأبدى ، وإنما نحن

أنفسنا الذين نحدد بأيدينا وإرادتنا واختيارنا ومشيئتنا حالتنا التى سنكون عليها فى المستقبل . فإذا كان الله يعرف سابقاً أن هذا الإنسان سيكون صالحاً فليس معنى ذلك أن الله فرض على هذا الإنسان أن يكون صالحاً ، بل معناه أن الله رأى صلاح هذا الإنسان وتقواه فحكم أنه صالح ، حتى وإن كان هذا الإنسان لم يولد بعد ، لأنه كما قلنا إن ما لم يولد بعد بالنسبة لنا فهو موجود وحاضر بالنسبة لله . وكما يحدث بالنسبة للظواهر الطبيعية الفلكية أن علماء الفلك يتمكنون من معرفة ما سوف يقع بالنسبة للظواهر كظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر ، يعرفون هذا قبل وقوع الظاهرة بمدة طويلة ، وذلك بناء على عمليات حسابية علمية ، هكذا الأمر أيضاً بالنسبة لله فإنه يعرف قبل أن يولد الإنسان ما سوف يكون عليه هذا الإنسان مع الفارق بين معرفة الله ومعرفة عالم الفلك من حيث طبيعة المعرفة .

وكما أن معرفة علماء الفلك للظواهر الطبيعية ليست هى علة حدوث هذه الظواهر فهكذا الأمر بالنسبة لله فإن معرفة الله بالنسبة لما سوف تكون عليه حياة الإنسان المستقبلة ليست هى السبب فى الكيفية التى سيكون عليها الإنسان إن كان خيراً أو شراً . يجب إذن أن نفرق بين علم الله وبين إرادة الله . فما يعلمه الله ليس بالضرورة ما يريده .

وجملة القول : إن الله لا يتعامل مع البشر بقوة طاغية متجبرة فيحدد مصيرهم كما يشاء ، بل يحترم الحرية البشرية ، ويتم إختياره للبشر ورفضهم وفق تصرفاتهم وحسب مسلكهم . وإليك بعض الآيات التى تؤكد الحرية البشرية واحترام الله لها :

(مت ٢٣ : ٣٧ ، يع ١ : ١٣ ، ١٤ ، إش ٦٥ : ١٢ ، ١ : ١٩ ، مت ١٩ : ١٦ ، يو ٥ : ٤٠ ، يش : ٢٤ : ١٥ ، تك ٤ : ٥ ، تث ٣٠ : ١٥ ، ١١ : ٢٦ ، حز ٣٣ : ١١ – ٢٠ ، أر ١٨ : ٧) .

إن التعيين الإلهى الذى علم به الرسول ليس هو بالمطلق ولا يعادل ما يعرف بالقضاء والقدر فى الروح اليونانية . كان معنى القدر والخوف من المقدور متأصلين بعمق فى الروح اليونانية . من القرن الرابع وصاعدا يصادف المرء بكثرة قوى القدر والحظ والطالع والجبرية . فى الناموس الثابت للسببية التى كشفتها الروح اليونانية الفلسفية يخضع لها الآلهة أنفسهم . فى نطاقها لا يسود شعور ولا منطق ولذلك حتى عند الشعراء الكبار يسيطر التأمل اليائس فى الحياة وكأنه دافع محبوب عندهم . فى الإحاطة الأزلية بالأمور فى مسرى التاريخ يؤمنون – وعلى الأخص بوليفيوس (٢١٠ – ١٢٥ ق . م) أن ناموس الحتمية هو السائد لذلك شخصوا الزمن وكأنه أحد آلهة القدر – الأيون – أى الأبد ، وأظهروه كائناً غريباً يصر بأسنانه . ويظهر – فيما يقول جوزيف هولزنز – أن بولس بقوله " أركان هذا العالم " (كو ٢ : ٨) ألمع إلى الآلهة الفلكية وآلهة القدر والنصيب ، ولعلها كانت فى فكره عند وصفه بالمعركة الحاسمة ضد " رئيس القوات الشريرة فى الفضاء " (أف ٢ : ٢ ، ٦ : ١٢) .

قبل العصر المسيحي ظهر " مخلصون " عديدون أرادوا أن يخلصوا العالم من تحكم القدر فعدوا أيسيذا أنها " مروضة الضرورة " وعدوا سيرابيس (إله مصرى يونانى) أنه " مخلص الفقراء " . تحت هذا

الضوء تأخذ دعوة يسوع " تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والرازحين تحت أثقالكم " مت ١١ : ٢٨) معناً جديداً [١].

لقد سبق وتناولنا هذا الموضوع بشئ من التفصيل فى كتاب لنا بعنوان " تعيين الله السابق فى تعاليم بولس الرسول " ومما قلناه فى هذا الشأن :

إن دعوة إسحق ويعقوب بحسب الإختيار ورفض أخويهما ليس له أية صلة بالتعيين الشخصى السابق لخلاصهما الكامل أو النهائى وهلاك أخويهما الأبدى بل باعتبار وضعهما بالنسبة لشعب إسرائيل المختار من قبل الله . وموسى قد طلب نعمة من الله ، ولكن هذا لم يكن له أية علاقة بخلاصه الشخصي (خر ٣٣ : ١٩ ، رو ٩ : ١٥) ثم أن الرسول لم يشر إلى أن قساوة فرعون وموقفه المعاند من الله قد حدد مصيره النهائى ، لأن الرسول يتحدث فقط عن واقعة معينة أى عن رفض فرعون فى أن يترك إسرائيل حراً دون أن يهتم بحياة فرعون بعد هذا الرفض . كذلك فإن عبارات الرسول القوية عن البعض بأنهم " آنية غضب مهيأة للهلاك " وعن البعض الأخر بأنهم " آنية رحمة " يصف بها الرسول حالة الناس فى الوقت الذى يتكلم عنهم فيه ولكنه لم يشر إذا كانوا يظلون هكذا على الدوام إلى النهاية " آنية رحمة وآنية غضب " . كذلك لم يجرد الرسول أحداً من تحمل المسئولية عن حالته الحاضرة . إن الأصحاح الحادى عشر من رسالة رومية يناقض بأكمله تعاليم القائلين بالتعيين

---

[١]- جوزيف هولزنز : بولس الرسول – ترجمة البطريرك إلياس الرابع – طبعة ثانية – معهد القديس يوحنا الدمشقى – البلمند – لبنان ١٩٨٥ ص ٤٨٢ .

المطلق للخلاص أو الهلاك النهائى ، إذ يشير الرسول أنه إذا كان اليهود قد رفضوا بسبب عدم إيمانهم فإن المؤمنين من الأمميين يحظون بعضوية الكنيسة إذا ثبتوا على إيمانهم " حسناً من أجل عدم الإيمان قطعت وأنت بالإيمان ثبت . لا تستكبر بل خف لأنه إن كان الله لم يشفق على الأغصان الطبيعية فلعله لا يشفق عليك أيضاً . فهوذا لطف الله وصرامته ، أما الصرامة فعلى الذين سقطوا وأما اللطف فلك إن ثبت فى اللطف وإلا فأنت أيضاً ستقطع " (رو ١١ : ٢٠ – ٢٣) .

إن التعليم بالتعيين المطلق يلغى قيمة التاريخ الإنسانى وتاريخ الأفراد لأن معنى ذلك أنه بالمجهود الإنسانى لا يحدث شئ إنما كل شئ يسير حسب الطريق المرسوم سابقاً ، وكذلك فإن عمل المسيح الخلاصى وجميع الوسائط التى نحصل بواسطتها على الخلاص ستصبح عديمة الفائدة أو الجدوى طالما أن الأمور سوف تظل ثابتة لا تتغير كما سبق ورسمت منذ تأسيس العالم بإرادة الله كلى القدرة . فإذا كانت الأمور تسير على هذا النحو من التعيين المطلق السابق فلم يعد ثمة مجال للتحدث عن الله الحى الذى يعمل على الدوام فى حياة الأفراد وفى تاريخ الإنسانية . إن التعليم بالتعيين المطلق سيقود إلى هذه النتائج غير المعقولة . على أن المسئولية لا تقع على الرسول بولس إذا أساء البعض فهم تعاليمه [1].

---

[1] – أنظر كتابنا " تعيين الله السابق " المركز المصرى للطباعة ١٩٩٣ ص ٩١ – ١٠٧

من إصدارات دار أنطون

(١) لنيافة الأنبا بيشوى

- شرح الإيمان الأرثوذكسى

(٢) لنيافة الأنبا هدرا

- خطورة اللسان

(٣) لنيافة الأنبا إشعياء

- الكتاب المقدس ومكانته

(٤) لنيافة الأنبا مارتيروس

- التسبيح الكنسى فى العصر المسيحى الأول

(٥) للمتنيح القمص بنيامين المحرقى

- رسالة القدوس .. لخدمة النفوس
- أصول علم الوعظ وفنونه

(٦) للقمص بطرس بطرس بسطوروس

- يا ابنى اعطنى قلبك
- وجدت من تحبه نفسى
- طوباهم الذين بلا عيب
- أين أجد الرب يسوع
- الخلاص
- القداس الإلهى
- أكرم أباك وأمك
- اسلكوا بالروح
- قوموا يا بنى النور
- حياة التسليم عند العذراء
- الوحى الإلهى
- كن مراضيا لخصمك
- سمر خوفك فى لحمى
- أخوة الرب الأصاغر
- كيف نستقبل وليد المذود ؟
- من الذى ولدته العذراء ؟

(٧) للراهب أكسيوس الأنبا بيشوى

- الشباب وهدف الوجود

(٨) للدكتور موريس تاوضروس

- الفكر اللاهوتى عند بولس الرسول
- الإيمان فى رسائل بولس الرسول
- تعيين الله السابق فى تعاليم الرسول بولس
- اليهود واليهودية فى تعاليم الرسول بولس
- تفسير الرسالة إلى العبرانيين

- تفسير الرسالة إلى أهل كورنثوس ١ و٢
- تفسير الرسالة إلى أفسس
- تفسير الرسالة إلى رومية
- تفسير سفر الرؤيا
- تفسير رسالة يعقوب
- تفسير رسالة يعقوب
- تفسير رسالة بطرس الرسول الأولى
- الديانة المسيحية
- العدالة والمحبة فى كتاب العهد الجديد
- المجئ الثانى والدينونة
- المسيحية والجنس
- مفهوم التبرير بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الإنجيلية
- المسيح والمسيحية فى سفر إشعياء
- الإفخارستيا فى فكر القديس كيرلس الإسكندرى
- مفهوم الزمان والأبدية
- القديس أغناطيوس «حامل الإله» حياته وتعاليمه
- الإنجيل فى حياتنا اليومية
- أمثال السيد المسيح ج ١
- دراسات لاهوتية ولغوية فى العهد الجديد
- براهين الكتاب المقدس على صحة التعاليم الأرثوذكسية

(٩) للشاعر : عادل البطوسى

- معجزات العذراء مع الأمراء والملوك والخلفاء
- وطن يعيش فينا
- البابا شنودة شاعرا
- روائع البابا شنودة الشعرية
- القول الصحيح فى دوام بتولية أم المسيح

بالإضافة إلى إصدارات الدار .. للكبار والصغار

عبر مجموعة متنوعة وشيقة من كتب

الأطفال التى تناسب كل المراحل العمرية ..

ونجمع بين المتعة والتسلية « والفائدة الروحية »

والعقيدة الأرثوذكسية .

وترقبوا دائما جديدنا فى مختلف الأشكال الإعلامية ،،

هذا الكتاب

مثلما تختلف الآراء حول مشكلة الإختيار . وهل الإنسان مخيّر أم مُسيرٌ ؟ تختلف المُقارنات والمداليل حسبما يحدث فى كل إشكاليات المصير الإنسانى !!

وفى هذا الكتاب الفريد يعرض الدكتور الموقّر موريس تاوضروس إلى هذه المشكلة بين العقيدة الأرثوذكسيّة والعقائد الأخرىّ إنسانياً ولاهوتياً وعقيدياً بخبرة عميقة ووعى إنسانى وإرث حضارى يتفرّد به المؤلّف الكريم الذى تعتبر مؤلّفاته معقلاً للموارد فى موضوعها مما يجعله - رغم إيثاره الأثير - فى طليعة الوراقين والكُتّاب المُعاصرين .

إنهُ كتابٌ مُتميّزٌ ولا غنى عنه بحق للجميع .

فاحرصوا على إقتنائه .

الناشر

دار أنطون بشبرات : ٥٧٤٥٩٤١ / ٥٧٨٩١١٠ فاكس : ٥٧٤٦٥٠٩
WWW.daranton.com E-mail: info@daranton.com